أثر التأويل العقلي في الدرس اللغوي والبياني

The effect of mental interpretation in the linguistic and graphic lesson

د. بلمصابيح خالد[1]
Dr. Belmsabih Khaled
المركز الجامعي الونشريسي تيسمسيلت (الجزائر)
Tismeselt University Centre(Algeria)
belmessabihkhaled14000@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2019/06/26 تاريخ القبول: 2020/02/01 تاريخ النشر: 2020/04/16

ملخص:

من الثابت أن المعتزلة كانوا الباقين إلى العناية بالدراسات البيانية العربية، وأنه على أيديهم نمت هذه الدراسات وتفرعت و عمقت، فكان من الطبيعي أن تتأثر بتوازعهم الفكرية و فلسفتهم الاعتقادية. وإلى جانب المناظرات والخطابة كان اعتماد المعتزلة على التأويل العقلي من الدوافع التي وجهت عنايتهم إلى البحث البلاغي ، فالتأويل ستوقف بالضرورة على هذا البحث ، وقد بذلوا في هذا المجال جهدا كبيرا، تحدوهم في ذلك الرغبة القوية في التوفيق بين أصول الاعتزال وبين نصوص القران الكريم. والتأويل العقلي من أهم الأسس التي قام عليها المنهج الاعتزال- و التأويل في مفهومه القريب، هو صرف اللفظ من معناه الظاهري إلى معنى دهني وراء الظاهر، يفهم بالقرائن اللفظية أو العقلية، و بمعرفة مسالك الدلالات اللغوية، حيث أن المعتزلة لم يكن منهجهم في التأويل لغويا بل كان عقليا بالدرجة الأولى. فعندهم أن متعاطي التأويل لا يكفي أن يكون عالما باللغة بل لابد له من علم اخر هو علم الكلام، العلم الذي يقرر أصول الدين وأصول النظر. كان العقل هو الأساس الأول من أسس التفكير لدى المعتزلة، اعتمدوا عليه في تقرير أصول منهجهم، و في تحديد موقفهم من المشاكل التي نشأت عن الخلاف بين المسلمين: في مسائل القدر والإرجاء و الجبر و الاختبار و مسائل الإيمان و مرتكبي الكبائر، وفي تأويل الآيات و الأحاديث.

كلمات مفتاحية: المعتزلة، التأويل، القرآن الكريم، الدرس اللغوي، البيان، العقل.

Abstract:

It is clear that the Mu'tazil were the ones who were left to take care of the Arab graphic studies, and that by their hands these studies grew and expanded and deepened, and it was natural that they were influenced by their intellectual and ideological

1- المؤلف المرسل: د. بلمصابيح خالد belmessabihkhaled14000@gmail.com

thinking .In addition to the debates and rhetoric, the Mu'tazil's reliance on mental reasoning was one of the motives that guided their attention to rhetorical research. The interpretation will necessarily stop this research. They have exerted great efforts in this field. This is motivated by the strong desire to reconcile the principles of separation between the texts of the Quran Cream . And the mental interpretation of the most important foundations on which the approach of retirement - and interpretation in the near concept, is the exchange of the meaning of the apparent meaning of greasy behind the apparent, understood verbal or mental evidence, and knowledge of the paths of linguistic connotations, since the Mu'tazilah was not their approach to interpretation Linguistically but was primarily mental. For them, those who resort to interpretation are not enough to be a scholar of the language, but rather to have other knowledge, which is the science of speech, the science that determines the origins of religion and the principles of view .The reason was the first basis of thinking among the Mu'tazilites, who relied on it in determining the origins of their approach and in determining their position on the problems that arose out of the dispute between the Muslims: matters of fate, delay, algebra, test, faith, And Hadiths.
Keywords: Mu'tazila, Ta'wil, Qur'an, Language Lesson, Statement, Mind.

مقدمة:

التأويل العقلي من أهم الأسس التي قام عليها المنهج الاعتزالي، والتأويل في مفهومه القريب هو صرف اللفظ عن معناه الظاهري إلى معنى ذهني وراء الظاهر، يفهم بالقرائن اللفظية أو العقلية، وبمعرفة مسالك الدلالات اللغوية.

غير أن المعتزلة لم يكن منهجهم في التأويل لغويا بل كان عقليا بالدرجة الأولى، فعندهم أن متعاطي التأويل لا يكفي أن يكون عالما باللغة؛ بل لابدّ له من علم آخر هو علم الكلام، العلم الذي يقرر أصول الدين وأصول النظر.

أما أهل السنة وأصحاب السلف فإنهم يحرمون الكلام والتفسير بالرأي، حكم بذلك مثلا الإمام ابن تيمية فقال:"فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام"(1).

ولهذا تحرّج مفسرو السلف من تفسير ما لا علم لهم به

وعلى العكس من ذلك فإن موقف المعتزلة يستلزم بالضرورة البحث بالتزام الرأي وتقديمه؛ لأن صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى موافق لدليل عقلي، لا يتأتى إلا بعد معرفة مواضع استعمال ذلك اللفظ في اللغة، ومعرفة متى يكون موضوعا في موضعه الأصلي وحقيقته، ومتى يكون مستعملا على غير حقيقته، ثم لا يتوصل إلى معرفة هذا أيضا، إلا بعد معرفة القرائن

والعلاقات التي تحكم ذلك النقل وتجيزه وتضبطه، ومن هنا يمكن القول إن البلاغة القرآنية مدينة، إلى أصحاب الرأي، بفضل كبير في دراستها وإظهارها.

والحق أن اهتمام العلماء على اختلاف اتجاهاتهم وميولهم، انحرف منذ أواخر القرن الأول للهجرة إلى العمل على تدوين اللغة العربية وشرح ألفاظها، وتحديد قواعدها ونشطت تبعا لذلك رواية الشعر القديم وتدوينه وشرحه.

ويمكن تلخيص أسباب هذه الحركة العلمية فيما يلي:

أولا: تفسير القرآن الكريم والحديث الشريف؛ لأن نصوصهما مصدر للأحكام الشرعية، ولا يمكن استنباط الحكم من النص ما لم تشرح معانيه وتحدد بدقة، دلالات ألفاظه.

ثانيا: ما طرأ على اللغة العربية من اللحن والفساد بعد أن وقع اختلاط للعرب بالعجم فكان من نتائج هذا اللحن اهتمام العرب ومن يعطف عليهم بدراسة اللغة، وإظهار فضلها وخصائصها.

لهذه الأسباب وغيرها ظهرت الحاجة إلى دراسة اللغة ووضع علومها، فنهض بهذا العمل الجليل جماعة من علماء اللغة والنحو والرواة –ولكن هذا اللون من الدرس اللغوي لم يكن يهتم بالجانب البياني والبلاغي إلا في القليل النادر– وإنما كان همه هو جمع اللغة وتدوينها ووضع قواعدها لإقامة الإعراب.

ولما ظهر الخلاف بينالفرق الإسلامية ظهرت معه الحاجة إلى دراسة قضايا الدلالة، إذ اشتد الخلاف بين الفرق الإسلامية، وشرعت كل فرقة في تأويل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وجمعها لتأييد رأيها، ووجدت كل فرقة في ألفاظ هذه النصوص في كثير من الأحيان مرونة كبيرة، تعينها على حملها على ما يوافق آرائها: فعل ذلك الخوارج والمرجئة والقدرية، والمعتزلة أنفسهم.

ذكر أبو الحسن الخياط:"أن الخوارج والمرجئة ليس يطيقون بدعهم إلى رسول الله –صل الله عليه وسلم– أنه نصهم عليها بأعيانها وإنما يأتون إلى رسول الله –صل الله علية وسلم– يحتمل التأويل فيقولون إنما أراد مذهبنا"(2)، وروى القاضي عبد الجبار عن شيخه أبي عالي الجبائي أنه ذكر السبب في ظهور المرجئة فقال:"والسبب في ذلك أن أوائلهم تأولوا القرآن على غير وجه، ورووا أخبارا، ومالت قلوبهم إلى ما هو أسهل وأطيب للنفس، لأن اعتقاد الوعيد يغلظ على النفس"(3).

وتأول (المجبرة) من جهتهم القرآن والحديث وحملوا بعض الألفاظ على ما يوافق عقيدتهم، ذكر القاضي عبد الجبار سبب ظهور بدعتهم فقال: "وإنما أوتوا في ذلك لأنه كان عندهم أن القضاء والقدر معناهما الخلق، فكل ما قضاه الله وقدره فقد خلقه، وكل ما خلقه فقد شاءه، ولو علموا أن القضاء والقدر قد يكون بمعنى الأمر والإلزام ...وقد يكون بمعنى الكتابة والإخبار والأعلام... لوجب أن يتأولوا ما وجب من قضاء الله في كل الأعمال على معنى

الخير، وفي العبادات على معنى الإلزام، فأما حملهم ذلك على الخلق ففيه إبطال الأمر والنهي"[(4)].

وفعل (المشبهة) مثل ذلك: "فزعموا أن الله جسم، وأنه على صورة الإنسان وتعلقوا بالآيات المتشابهة وتركوا أن يتأولوا بما يوافق دليل العقل والآيات المحكمة"[(5)].

ولم يقف خطر الاختلاف عند هذا الحد بل اندفع خصوم الإسلام يشغلون تلك الخلافات وينشرون آرائهم الضالة بين بعض الفرق الإسلامية، ويتذرعون بقولهم أن ذلك ضعف في القرآن .

وأمام هذه الخلافات الضاربة في صفوف المسلمين ظهرت الحاجة إلى وضع قاعدة تضبط تأويل النصوص، وتمنع تسرب الشبهات.

فأما أهل الحديث وعلماء السلف فإنهم تحرجوا من الجدال، وأشفقوا من استعمال الرأي في تأويل نصوص القرآن والحديث، بينما علماء اللغة والنحو فبضاعتهم لا تؤهلهم لسد هذه الحاجة.

وهنا يظهر المعتزلة بمنهج جديد قوامه العقل، وموقف خاص اعتزلوا به الفرق المختلفة فأرادوا أن يتوسطوا بينها، وقد ظهر هذا الموقف في مبدئهم الأول، وهو المنزلة بين المنزلتين، أرادوا أن يسلكوا طريقا وسطا بين أصحاب التأويلات البعيدة من الفرق الإسلامية، وبين أهل الظاهر الذين يمتنعون من التأويل.

فحكّموا العقل، وجعلوا منه مبدأ صالحا لأن تتلاقى عنده الآراء المختلفة، وأن يرجع إليه في تقريب شقة الخلاف فيما يتعلق بتأويل نصوص القرآن، إيمانا منهم بأن أدلة العقل مضبوطة يتفق فيها جميع العقلاء لا مجال فيها للتأويل والاختلاف.والتوسط في المواقف والأحكام، مبدأ أثير لدى المعتزلة، وهو في الحقيقة نابع من تحكيم العقل.

لقد كان هم المعتزلة—فيما يبدو– هو القضاء على الخلافات، أو على الأقل تقريب الشقة بين الآراء المتضاربة وبخاصة بعد أن رأوا الفرق الإسلامية تتجاذب فيما بينها نصوص القرآن، كل يؤوله حسب هواه، ورأوا خصوم الإسلام من أهل الديانات الأخرى وملحدي الدهرية والمانوية مجدين في إثارة الشكوك والشبهات، لهذا كله أخذوا بمبدأ التأويل العقلي، وإمعانا منهم في الحرص على جعله مبدأ بعيدا عن التطرف قيدوه بجملة من الضوابط، وهي تتلخص فيما يأتي:

1- العقل:
2- اللغة وشواهدها.
3- رد متشابه القرآن إلى محكمه.
4- مراعاة بقاء نظم القرآن في مرتبة الإعجاز والتحدي بعد التأويل.

ويحسن بنا أن نتناول كل واحدة من هذه الضوابط بشيء من التفصيل لبيان مبلغ حرصهم على إحاطة هذا المبدأ بكل ما من شأنه أن يجعله محكما سليما، ولبيان أثر ذلك في نشاط البحث اللغوي المتعلق بالدلالة.

أولا: العقل:

للعقل مكانة مرموقة في التفكير الاعتزالي، فهو الرائد الذي لا يكذب، والدليل الذي لا يزيغ، فقد حكّموه في كل شيء، وأخضعوا له العقائد الدينية، واعتمدوا عليه في تأويل القرآن وتفسيره، ونقد الحديث وتصحيحه، وفي الدفاع عن الإسلام ومناظرة خصومه، كما اعتمدوا عليه في تقرير أصول مذهبهم، وفي تحديد موقفهم من المشاكل التي نشأت عن الخلاف بين المسلمين: في مسائل القدر والإرجاء والجبر والاختيار، ومسائل الإيمان ومرتكبي الكبائر، وفي تأويل الآيات والأحاديث المتعلقة بهذه المسائل وغيرها[6].

ثانيا: اللغة

اللغة هي الأساس الثاني من الأسس الضابطة للتأويل العقلي الاعتزالي فإذا تقرر في نص الخطاب الإلهي ما يصح في العقول فإن الخطوة التي تلي ذلك، ولا غنى عنها هي البحث في ذلك الخطاب من الناحية اللغوية، لجعل ألفاظه وتراكيبه قابلة للمعاني الموافقة للدليل العقلي، وفي هذا البحث ينظر في التركيب اللغوي، ويدرس ما فيه من الألفاظ، والإسناد والعلاقات، والقرائن التي تبين ما إذا كان اللفظ حقيقة أو مجازا، عاما أو خاصا، مقيدا أو مطلقا، مقدرا أو مؤولا، إلى غير ذلك من حالات التركيب اللغوي، ثم لا يقف هذا البحث اللغوي عند هذا الحد، بل ينتقل إلى التماس الشواهد من الشعر الصحيح، ومما عرف من طرق التعبير العربي الفصيح لكل ظاهرة من ظواهر التركيب اللغوي، ويكفي أن نطالع جزءا من كتاب (الحيوان) لترى ذلك الحشد الهائل من الأشعار التي يستشهد بها صاحب الكتاب على شتى المعارف والمباحث كما ترى ذلك في كتب المتكلمين عامة.

ثالثا: المحكم والمتشابه:

هذا هو الأساس الثالث لضبط التأويل وصوره المتشابه إلى المحكم –قال عز وجل:﴿هو الذي أنزل عليكم الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾(7)، فبين أن القرآن ينقسم إلى محكم ومتشابه، وأن المحكم هو الأصل الذي يبنى عليه المحكم والمتشابه، وقد أجمع المسلمون على ذلك ولكنهم اختلفوا في معنى المحكم والمتشابه[8]، ولعل أقرب الأقوال في ذلك أن المحكم هو ما لا يحتمل إلا وجها واحد، والمتشابه هو ما احتمل أوجها من المعاني[9].

هذا القول هو الذي وافق مذهب المعتزلة ولذلك قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿آيات محكمات﴾: أحكمت عبارتها بأن حفظت من الاحتمال والاشتباه"، وقرر أن المحكم هو أصل للمتشابه.

يرد إليه عند التأويل، ولذلك فسر قوله تعالى:﴿هن أم الكتاب﴾ بقوله: "أي أصل الكتاب تحمل المتشابهات عليها وترد إليها"[(10)].

فالعقل هو الأصل في كل تأويل، وفي التمييز بين المحكم والمتشابه، يقول القاضي عبد الجبار:" يجب أن يترتب المحكم والمتشابه جميعا على أدلة العقول، ويحكم بأن ما لا يحتمل إلا ما تقتضيه هذه الجملة يجب أن يثبت محكما، وما احتمل هذا الوجه وخلافه فهو المتشابه، فأقوى ما يعلم به الفرق بين المحكم والمتشابه أدلة العقول"[(11)].

إن المعتزلة، بجمعهم بين التمسك بأحكام العقل، وبين العلم الغزير باللغة والتقدم في رواية الأشعار، استطاعوا أن يجعلوا من تأويل متشابه القرآن مجالا فسيحا للبحث في قضايا اللغة والبلاغة، فكشفوا عن كثير من أسرارها في القرآن والحديث، وبذلك أسدوا خدمة جليلة للبلاغة العربية[(12)].

رابعا: مراعاة بقاء النظم القرآني ومعانيه في مرئية الإعجاز:

لا يكفي في صحة التأويل القرآني أن يستند إلى الدليل العقلي، ولا إلى الدليل اللغوي، ولا إلى رد المتشابه إلى المحكم، بل لابد من مراعاة شرط آخر أهم وأدق، وأبعد أثرا في ترجيح التأويل وتزكيته، إنه مراعاة نظم القرآن وإعجازه، فالتأويل السليم هو الذي يراعي كل هذه الأمور.

فالقرآن الكريم معجزة الرسول –صل الله عليه وسلم– الخالدة، ودليل نبوته الباقي على الدهر، وهو معجز ببلاغته ونظمه، لذا كان من اللازم أن يراعي في تفسيره وتأويله بقاء تلك البلاغة، وذلك النظم في مرئية الإعجاز، فإذا كان اللفظ القرآني يحتمل أوجها مختلفة من المعاني، فإن المعنى الذي ينبغي ترجيحه، بعد اعتبار الضوابط الثلاث السابقة، هو المعنى الذي يحفظ للكلام صحته وقوته، وللتركيب سلامته وفصاحته وبلاغته، وللنظم القرآني روعته وجماله، والحق أن العلماء اتفقوا جميعا على أن معرفة البلاغة شرط مهم في تفسير القرآن. هذه باختصار الضوابط الأربع التي وضعها المعتزلة لضبط التأويل، وهي تفتح بابا واسعا للبحث اللغوي والبلاغي، وتدفع إلى دراسة بلاغة القرآن، والكشف عن أساليب التعبير ومسالكه في اللغة العربية.

وبذلك كان التأويل العقلي من أهم الدوافع التي دفعت المعتزلة إلى العناية بقضايا البلاغة، فوقفوا وهم يعالجون تأويل نصوص القرآن على ملاحظ دقيقة في البلاغة والبيان، وكان ذلك من البوادر الأولى لنشأة البلاغة العربية.

إن مراعاة هذه الضوابط عند التأويل عمل ذهني دقيق، لا يتأتى إلا بمن كانت له خبرة واسعة بعلم الكلام، واللغة، وقدرة كبيرة على التحليل، ولا ندعي أن المعتزلة راعوا بدقة هذه الضوابط في كل تفاسيرهم، وتأويلاتهم فقد يستعصى ذلك عليهم في بعض الأحيان، وقد

يجمح بهم العقل فيردون إليه الآية أو الحديث بشيء من التكلف والتعسف، وبخاصة إذا تعلق الأمر بالآيات القرآنية التي لا تساير مذهبهم.

وليس من غرض هذا المقال أن نناقش المعتزلة فيما تكلّفوه من التأويل، ولا في التطبيق الشروط التي وضعوها لضبط، وإنما يهمنا إبراز ما أثمره التأويل العقلي، ولو كانت متكلفا، من بحث لغوي.

إن تحكيم العقل في فهم الخطاب اللغوي، يكون لدى المعتزلة إحساس لغويا مرهفا، جعلهم يتعاملون مع اللغة بحذر شديد؛ لأنهم أدركوا أن الدلالة اللغوية تكون سببا للضلال، إذ لم تحدد بدقة.

ونتج عن هذا الإحساس اللغوي المتميز اهتماما كبيرا بمسألة الدلالة في الوسط الاعتزالي، وفي دوائر المتكلمين عامة، وقبل أن نسوق أمثلة توضح هذا الاهتمام لدى المعتزلة، يحسن أن نشير إلى أن هذا الإحساس لا ينحصر في أبحاثهم اللغوية المتعلقة بالقضايا الكلامية؛ بل تجده واضحا في أبحاثهم اللغوية العامة؛إما لتصحيح تفسير آية قرآنية، أو لتصحيح معنى شعريا فُهم على غير وجهه.

أما في تصحيح تفسير الآيات، من ذلك مثلا وقفة الجاحظ عند ذكر الغراب في القرآن، يبين فضله، حيث بعثه الله ليري ابن آدم كيف يواري سوءة أخيه، وأثناء ذلك مرت به لفظة قرآنية نبهت إحساسه اللغوي، فوقف ليبين حقيقة مدلولها.

جاء في القرآن على لسان ابن آدم الذي قتل أخاه قوله تعالى:﴿**يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي فأصبح من النادمين**﴾ [13]، قال الجاحظ وأما قوله:﴿**فأصبح من النادمين**﴾ فلم يكن به على جهة الإخبار أنه كان قتله ليلا وإنما هو كقوله :﴿فقد جاء بغضب الله﴾ [14]، ولو كان المعنى وقع على ظاهر اللفظ دون المستعمل في الكلام من عامة الناس، كان من الذي فرّ من الزحف ليلا لم يلزمه وعيه، وإنما وقع الكلام على ما عليه الأغلب من ساعات أعمال الناس، وذلك هو النهار دون الليل.

وهذا أيضا كقوله تعالى: ﴿**ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله**﴾ [15]، ولو كان هذا المعنى إنما يقع على ظاهر اللفظ دون المستعمل بين الناس، لكان إذا قال من أول الليل إني فاعل ذلك غدا في السحر أو مع الفجر، أو قال الغداة، إني فاعل يومي كله، وليلتي إذن لا يكون مخالفا إلا بما وقع عليه اسم غد، فأما كل ما خالف ذلك في اللفظ فلا، وليس التأويل كذلك، لأنه جل وعلا إنما ألزم عبده أن يقول: إن شاء الله ليتقي عادة التآلي[16]، ولئلا يكون عند ذلك ذاكر الله لأنه عبد مدبر، ومقلب مسير، ومصرف مسخر، وإذا كان المعنى فيه والغاية التي جرى إليها اللفظ إنما هو على أن يقول: افعل ذلك بعد سنة فرق.

"وأما قوله : "فأصبح من النادمين" فليس أنه كان هناك ناس قتلوا إخوتهم وندموا فصار هذا القاتل واحدا منهم"[17].

واضح إذن ما في هذا البحث المتأني لدلالات هذه الألفاظ القرآنية من دقة تنبئ عن إحساس الجاحظ اللغوي المتيقظ، وتدل على وعيه التام بخطورة مشكل الدلالة اللفظية وهذا كله إنما هو وليد البيئة الكلامية وثمرة التأويل العقلي.

أثر الاعتزال في دراسة المجاز والتوسع اللغوي.

للمجاز اللغوي والتوسع في استعمال الألفاظ علاقة كبيرة بمسألة الدلالة اللغوية، لأن المجاز والتوسع معناه خروج اللفظ عن مكانه الأصلي، واستعماله في غير ما وضع له، وهذا يعني أن دلالته تختلف من سياق إلى آخر، ولتحقيق تلك الدلالة وتحديدها لابد من التفرقة الواضحة بين الحقيقة والمجاز، والتصريح والكناية، وبين التعبير المباشر والتعبير بطريق الوحي والإشارة، وهذا أمر يدعو إلى البحث عن قواعد التعبير البياني عامة.

والمجاز والتوسع اللغوي ركيزة من ركائز الاعتزال الهامة، فهو عمدتهم في تثبيت مذهبهم والدفاع عنه. كان حرصهم على تثبيت عقيدتهم في التوحيد والتنزيه الإلهي، من جملة الدوافع التي دفعتهم إلى توسيع البحث في المجاز اللغوي وتعميقه، كما كان لتصديهم لحملات الشعوبيين والزنادقة على القرآن، بالطعن في ألفاظه ومعانيه، أثر كبير في توجيه عنايتهم لبحث مجازات القرآن.

ومن جهة أخرى كان المعتزلة أكثر الفرق الإسلامية اهتماما بالجدل الكلامي والمناظرات، شغلوا بها أنفسهم وملأوا بها المجالس العامة والخاصة، كما دفعتهم هذه المناظرات إلى التنبه إلى بعض قواعد البيان؛ كيف تجيء الخطبة سائغة مؤثرة، وكيف يعلو المناظر على خصمه بالحجة والبيان، لقد رأوا ما يكون بين المتناظرين من المنازعات حول العبارات، فأدركوا أن اللغة المناظرة تسلتزم التدقيق في اختيار الألفاظ وتحقيق معانيها، فدفعهم ذلك إلى العناية بقضية الدلالة اللغوية، يقول ابن حزم: "وإنما يلزم كل مناظر يريد معرفة الحقائق أو التعريف بها أن يحقق المعاني التي يقع عليها الاسم، ثم يخبر بها أو عنها بالواجب، وإنما مزج الأشياء وقلبها عن موضوعاتها في اللغة فهذا فعل السوفسطائية"[18]، فلغة المناظرة تقتضي الدقة التامة. يقول عبد القادر الجرجاني: "ومن حق المسائل الدقيقة أن تتأمل فيها العبارات التي تجري بين المسائل والمجيب وتحقق، فإن ذلك يكشف عن الغرض، ويبين جهة الغلط"[19]، وطلب هذه الدقة يدعو إلى العلم بطرق استعمال الألفاظ، وملاحظة أماكنها الدقيقة، والسياقات التي ترد فيها، والتفرقة العلمية بين مجازاتها وحقائقها، ولا يتم ذلك كله –عند المعتزلة– إلا بالاعتماد على أدلة العقل وأحكامه، ومعرفة علم الكلام وأصوله، ولهذا كان الجاحظ يرى ضرورة الجمع بين العلم باللغة و العلم بالكلام، ويرى أن العالم باللغة لا ينفع في باب الدين حتى يكون عالما بالكلام[20]، بل ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، فجعل علم

الكلام أساسا عقليا لتصحيح جميع المعارف، ومعيارا لتمييز الحقائق، وضابطا لكل عبارة فقال: "هو المعيار على كل صناعة، والزمام على كل عبارة، والرواق الذي يعرف به صفاء الشيء وكدره"[(21)]، وذهب إلى مثل هذا القاضي عبد الجبار حين ذكر العلوم التي يحتاج إليها مفسر القرآن، فجعل جميع تلك العلوم محتاجة إلى علم الكلام[(22)]، وتحدث في مكان آخر عن فضل العلوم، فنص على أن علم الكلام أشرفها لأنه أصل لسائر العلوم، يستقل بنفسه ولا تستقل بنفسها العلوم الأخرى[(23)].

يظهر من هذا أن المعتزلة جعلوا من علم الكلام منطقا لعلوم العربية، بما فيها علم اللغة، فكان أثر إخضاع اللغة لهذا المنطق دراسة مسائل الدلالة، وما يتصل بها من المجاز اللغوي، ولا غرابة في ذلك، فعلم المنطق يهتم أيضا بطريقة الدلالة اللفظية، وهكذا كان الاشتغال بالمناظرات والجدل، والبحث في أمور العقيدة بحثا كلاميا، وتأويل نصوص القرآن والحديث تأويلا عقليا، هذا كله باعث على دراسة ظاهرة المجاز والتوسع اللغوي.

وقد أدرك العلماء قيمة العلم بالعربية في تأويل نصوص القرآن والحديث، وعرفوا أن الجهل به يؤدي إلى الوقوع في الضلال، لأن طرائق التعبير متنوعة، لا تدل على معانيها في جميع الأحوال بظواهر ألفاظها –فكان العلم بمسالك الدلالة اللغوية أمرا ضروريا في مجال العقيدة – روى الأصمعي عن الخليل ابن أحمد عن أبي عمرو أنه قال: "أكثر من تزندق بالعراق لجهلهم بالعربية"[(24)]، وقال ابن قتيبة: "وقدمت أبواب المجاز إذا أن غلط المتأولين من جهته"[(25)].

من هنا كانت دراسة القرآن من أكثر الدوافع لدراسة اللغة العربية بعمق، قال الأستاذ دي بور: "وأكثر ما جعل التعمق في دراسة اللغة أمرا ضروريا هو اشتغال المسلمين بمدارسة القرآن وقراءته وتفسيره"[(26)].

وبالإجمال فإنّ ما جد على الحياة الإسلامية في القرنين الأول والثاني الهجريين من أوضاع اجتماعية ودينية وثقافية دعت إلى العناية بدراسة أساليب البيان العربي، إما لتطبيق شقة الخلاف بين الطرق الإسلامية، وصيانة القرآن من التأويلات البعيدة، وإما للرد على الطاعنين على القرآن من أهل الديانات الأخرى، الذين يجهلون أو يتجاهلون طرائق التعبير العربي الفصيح في القرآن، ويضنون أو يوهمون أن فيه نقصا أو فسادا في تركيبه وألفاظه ومعانيه.

وكان للمعتزلة فضل السبق إلى التعمق في دراسة المجاز اللغوي، والتفرقة بينه وبين الحقيقة، والكشف عن مسالكه وألوانه، وشرح قوانينه وأحكامه، يدل على ذلك ما جاء في كلام ابن تيمية حيث عرض للاختلاف حول مدلول لفظ "الإيمان" حيث ذهب بعض الفرق إلى أن حقيقته: الاعتقاد القلبي، وأن دلالته عن الأعمال المجازية، وفي الرّد على هؤلاء عرض ابن تيمية لتاريخ التفرقة بين مصطلحي الحقيقة والمجاز، فقال: "تقسيم الألفاظ الدالة على معانيها إلى حقيقة ومجاز وتقسيم دلالتها أو المعاني المدلول عليها، أن استعمل لفظ الحقيقة والمجاز في المدلول أو في الدلالة، فإن هذا كله قد يقع في كلام المتأخرين، ولكن المشهور أن الحقيق من

عوارض الألفاظ، وبكل حال فهذا التقسيم هو اصطلاح حادث بعد انقضاء القرون الثلاثة، لم يتكلم به أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان، ولا أحد من الأئمة المشهورين في العلم الكلام كالثوري والأوزاعي وأبي حنيفة والشافعي، بل ولا تكلم به أئمة اللغة والنحو كالخليل وسيبويه وأبي عمرو ابن العلاء ونحوهم، وأول من عرف أنه تكلم بلفظ المجاز أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه "مجاز القرآن"، ولكنه لم يعن بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة، وإنما عنى بمجاز الآية ما يعير به عن الآية، ولهذا قال من قال من الأصوليين كأبي الحسن البصري وأمثاله: إنما تعرف الحقيقة من المجاز بطرق.

منها: نص أهل اللغة على ذلك بأن يقولوا: هذا حقيقة، وهذا مجاز، فقد تكلم بلا علم فإنه ظن أن أهل اللغة قالوا هذا، ولم يقل ذلك أحد من أهل اللغة، ولابد من سلف الأمة وعلمائها ، وإنما هو اصطلاح حادث، والغالب أنه من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين"[27].

فهذه شهادة بأن درس المجاز اللغوي، وضع مصطلحاته العلمية، والبحث في مشاكل الدلالة اللفظية وضبط أحوالها، بدأ على يد المعتزلة، فهم الذين وضعوا هذا التقسيم وميزوا المجاز عن الحقيقة. وكان الذي أهلهم إلى ذلك هو الاشتغال بالجدل، وتحكيم العقل في تأويل نصوص القرآن، ثم الخبرة باللغة.

إلا أن التاريخ الذي قدره ابن تيمية لظهور مصطلحي المجاز والحقيقة وهو القرن الرابع الهجري فيه تجاوز كبير، لأن هذا المصطلح البلاغي كان معروفا خلال القرن الثالث هجري، يدل على ذلك ما نجده في كتاب "الحيوان" حيث يستعمل الجاحظ هذا المصطلح في أماكن عدة، ففي معرض حديثه عن استعمال الجاحظ لهذين المصطلحين قال شوقي ضيف: "واستعماله لكلمتي الحقيقة والمجاز في الحيوان يدخل في استعمال البلاغيين المتأخرين، فقد استعملها بمعناهما الدقيق، إن النظرة المدققة في فصول كتاب "الحيوان" لا يفوتها أن تلاحظ انشغال الجاحظ بدراسة هذه الظاهرة اللغوية، من أول الكتاب إلى آخره، فتارة يقف عند تأويل آية قرآنية، للرد على الطاعنين، وتارة يسوق كثيرا من الأشعار التي ترد فيها الكلمات في غير موضعها الحقيقي، فينبه على مجازها[28].

الهوامش:

1- ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير، تحقيق عدنان زرزور، دار القرآن الكريم، الكويت، مؤسسة الرسالة، ط1، 1972، بيروت، لبنان، ص 107.

2- مُحَمَّد الخياط، الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد، نشر المستشرق نيبرج، المطبعة الكاثوليكية، لبنان، بيروت، 1957، ص 136.

3- أبو القاسم البلخي والقاضي عبد الجبار والحاكم الجشمي، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تحقيق فؤاد سيد، الدار التونسية للنشر، 1393ه، 1974م، ص 153-154.

4- فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، ص 147-148.

5- المصدر نفسه، ص 49.

6- أنظر: أحمد أبو زيد، المنحى الاعتزالي في البيان والإعجاز القرآني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب، ط1، 1986، ص 144.

7- سورة آل عمران، الآية 07.

8- ينظر أقوال العلماء في ذلك في الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص 2.

9- ينظر جلال الدين السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ج1، ص 7-8.

10- الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، طبعة دار الفكر، بيروت، ج1، ص 412.

11- القاضي عبد الجبار، متشابه القرآن، تحقيق عدنان زرزور، دار النصر للطباعة، ط1386-1966، ص 7-8.

12- أحمد أبو زيد، المنحى الاعتزالي في البيان وإعجاز القرآن، ص 157.

13- سورة المائدة، الآية 33.

14- سورة الأنفال، الآية 16.

15- الكهف، الآية 23.

16- التآلي: الحلف

17- الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، دار الكتاب، ط3، 1388، 1969، ص 412-414.

18- ابن حزم، الفصل في الملل والنحل، ط1، مصر، 1347ه، ج2، ص 93.

19- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1351ه -1932م، ص 491.

20- الجاحظ، الحيوان، ج2، ص 15.

21- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 75.

22- القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، تحقيق عبد الكريم عثمان، مصر، القاهرة، ط1، 1965، ص 66.

23- أبو القاسم البلخي، فضل الاعتزال، وطبقات المعتزلة، تحقيق فؤاد سيد، الدار التونسية للنشر، 1393ه-1944م، ص 183.

24- أبو البركات الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار النهضة، مطبعة المدني، مصر القاهرة، ط1967، ص 28.

25- تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، شرح وتحقيق احمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1373، ص 75.

26- دير بور، تاريخ الفلسفة الإسلامية، نقله للعربية وعلق عليه مُحَمَّد عبد الهادي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط4، 1377م، 1957م، ص 53.

27- ابن تيمية، كتاب الإيمان، ص 83-84.

28- أحمد بوزيد، المنحى الاعتزالي في البيان وإعجاز القرآن، ص 172.